

التعليم العالي في العالم العربي على ضوء المتغيرات العالمية
توثبات وعوائق

جورج ن. نحاس
نائب رئيس جامعة البلمند
أستاذ تربية

التصميم

- ١ - مدخل
- ٢ - الصعيد السياسي
- ٣ - الصعيد المنهجي
- ٤ - صعيد الموارد البشرية
- ٥ - خاتمة

المدخل

- ١ - مؤتمر باريس سنة ١٩٩٨ وأهمّ الثوابت التي أتى بها:
 - أ - ضمان النوعية في التعليم العالي،
 - ب - خلق حوافز البحث في التعليم العالي وربطه بالعملية التأهيلية ككل،
 - ج - سيادة جو الحرّية الأكاديمية في التعاطي مع التعليم العالي وذلك على المستويات والأصعدة كافة.
- ٢ - المسعى العربي لمواكبة هذه التوجهات بجهود:
 - أ - الألسكو
 - ب - اتحاد الجامعات العربية
 - ج - الـ ARAB ACRAO .
- ٣ - التعثّر الحاصل في الواقع الجامعي العربي:
 - أ - فما زال موضوع ضمان النوعية يتعثّر، رغم الخطوات الجادة التي قام بها في هذا المجال اتحاد الجامعات العربية، والتقدّم الحاصل في بعض البلدان العربية، وقد دلّ على ذلك المؤتمر الذي عقد أخيراً في حلب (شباط ٢٠٠٣)،
 - ب - ما زالت الأبحاث عندنا تراوح مكانها بالنسبة لما ينتج عند غيرنا،
 - ج - ما زالت الشكوى قائمة من جو الحرّيات السائد، وذلك في قسم كبير من جامعاتنا.

لكننا اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، على مفترق طرق هام. والمشكلة التي نحن بصددتها متعددة الأسباب. فرضيتي أن ثلاثة أصعدة تؤثر اليوم سلبيًا على تطو التعليم الجامعي في العالم العربي: الصعيد السياسي، والصعيد المنهجي وصعيد الموارد البشرية.

الصعيد السياسي

ارتباط التطور الجامعي بالسياسة قائم على ثلاثة محاور متكاملة: هدف الجامعة، واستقلالية الجامعة، وتمويل الجامعة.

١ - هدف الجامعة

- أ - التفاوت بين النوايا المعبر عنها، والفعل على الأرض
- ب - لم تتخذ الدول العربية الإجراءات الكفيلة بجعل الجامعات ذراع الدولة في تحويل الوطن كله إلى جامعة.
- ج - لذلك على عكس عدونا الأول الذي يذبح جامعيينا في فلسطين، نحن نستهلك العلم كفتات ينزل عن موائد غيرنا، عوض أن نقدّم للعالم موائد علم من إنتاجنا.

٢ - الحريات الجامعية

- أ - لا يمكن للتخطيط وحده أن يؤدي إلى نتيجة إلا إذا رافقته قرينة أساسية في المدى الجامعي، أعني بها الحرية الأكاديمية.

- ب - إذا لم يساهم القرار السياسي في إقامة هذا الجو كمرتكز أساسي من مقومات الجامعات فلن تتقدّم جامعاتنا لتصبح رائدة في مجال العلم والفكر.
- ج - الحرّية وحدها قادرة أن تحوّل الطاقات الموجودة في مؤسساتنا إلى مداميك في بناء أكثر تطورًا يقوم على الفكر النقدي وعلى إنتاج المعلومة وعلى تدجين التقنية.

٣ - تمويل الجامعة

- أ - يبقى أن التخطيط والحرّية بحاجة إلى ما يفعلهما على الأرض. هنا يأتي دور التمويل للقطاع.
- ب - الدراسات الصادرة عن مراجع دولية تظهر بوضوح تراجع نسبة تمويل التعليم العالي وخاصة في مجال الأبحاث في مختلف البلدان العربية، وذلك قياسًا ليس فقط ببلدان الشمال الصناعية بل أيضًا ببلاد نامية صغيرة كسنغفورة.

لا يمكن للبيئة الجامعية في العالم العربي أن تبقى متفرجة على
الفرق يتسع بينها وبين البيئات المشابهة في العالم. لتجمع
كتجمعكم دور ريادي، فله أن يكون حلقة ضغط لتبديل الأوضاع
المتحكمة في التعليم العالي اليوم والتي تشده بشتى الوسائل
إلى التبعية العلمية لهذا الطرف أو ذاك

الصعيد المنهجي

إذا كان الشأن السياسي منوطاً بالبيئة الجامعية كحلقة مجتمعية ضاغطة، فهذا الشأن الثاني منوط بها مباشرة من حيث مسؤولياتها الجامعية. وهو يقوم على محاور ثلاثة: منهجيات التعليم، ومنهجيات البحث، وثقافة التقويم.

١ - منهجيات التعليم

أ - لن أتمكن في هذه العجالة من أن أدخل في تفاصيل هذا المحو نظراً لتشعباته.

ب - لكن لا بد من لفت النظر إلى بعض الأمور الأساسية التالية:

- مناهج الجامعات في العالم العربي بأكثريتها الساحقة مناهج موروثية من سنين طوال، أو مناهج منقولة عن ما هو قائم في هذا النمط الجامعي أو ذاك من العالم.
- قليل من محتوى هذه المناهج مرتبط بإشكاليات محلية، أي بأبحاث تطبيقية تهتم البيئة المحيطة بنا (من بشرية وغير بشرية). لذلك تساعد المناهج على قيام شرح بين الحياة وبين الجامعة عوض أن تقوم بينهما جدلية تنموية تدفع بالمجتمع إلى الأمام.
- لم تطور منهجيات التعليم لتصبح منهجية نقدية تواصلية، بل نكتفي عمومًا بأساليب تلقينية لاكتساب المعلومة. بينما السؤال الأساس هو حول قدرة طلابنا على معالجة

المعلومة وليس على تخزينها. هذا يتطلب تغييراً في رؤيتنا للأستاذ، وللطالب، ولهدف التعليم الجامعي ككل.

٢ - منهجيات البحث

- أ - منهجيات البحث ومنهجيات التعليم هما وجهان لعملة واحدة.
- ب - إذا طالعنا الدراسات الدولية حول مواطن إنتاج المعرفة في العالم، ستروعا طبعاً ضالة المنتج العربي.
- ج - وهذا يعود طبعاً، إلى أسباب عديدة أهمها:
 - غياب سياسة دعم وطنية للأبحاث في مختلف الدول العربية.
 - غياب رؤية عملية لدور الجامعات في أوطاننا المختلفة، لم يسمح بتحديد أولويات بحثية، فلم تؤمن للجامعات الأموال اللازمة لتطوير سياساتها البحثية.
 - غياب التأهيل على المنهجية البحثية في مناهجنا. وفي ممارستي لمهنتي كأستاذ، أعاني الكثير مع طلابي عند نقد اطروحات حاز كاتبها على دكتورا من هذه الدولة أو تلك، وهي بأكثريتها الساحقة تجميع معلومات ليس إلا.

٣ - ثقافة التقويم

- أ - سمحت ثقافة التقويم في القرن العشرين للدول الصناعية كافة بالمساهمة الفاعلة في تطوير المعارف في العالم.
- ب - التقويم من أجل ضمان الجودة والنوعية، في مجالات التأهيل والبحوث والأداء على حدّ سواء، هو من مقومات الحياة الأكاديمية.

ج - تستند العملية التقييمية إلى معايير موضوعية، فلا تؤثر فيها الضغوطات السياسية، أو العلاقات الشخصية، أو المصالح الضيقة.

المطلوب اليوم هو إعادة نظر جذرية بدور الأبحاث في التأهيل الجامعي حتى في درجاته الأولى، وبالنمط البحثي المعتمد، وبسياسة تقويم الأبحاث، وبتقنين علمي لعملية النشر، وبتشجيع النشر الجيد باللغة العربية وذلك في كافة المجالات إلخ.

هنا يكمن دور هيئة كهيئتكم بوسعها أن تساهم في تعميم هذه الثقافة ووضع معايير مقبولة عالمياً لصون جودة التعليم العالي في الوطن العربي ككل.

صعيد الموارد البشرية

دور الأستاذ الجامعي في حياة الجامعة الأكاديمية (وليس الإدارية فقط) هو محوري، وهذا من البديهيات.

أ - ما سبق وذكرت من مقومات هي معطيات ضرورية ليتمكّن الأستاذ من القيام بعمل خلاق:

- فمن دون قرار سياسي إيجابي حول هدف الجامعة، والحرية الأكاديمية، والدعم المالي للمجهود البحثي لن يستطيع الأستاذ من تطوير المعرفة وفق المعطيات العالمية.
- ومن دون قرار أكاديمي جامعي حول اعتماد منهجيات معرفية متطورة في مجالات التأهيل الجامعي، والبحث، والتقويم، لن يشعر الأستاذ أن طاقاته ستوظف وستحترم بشكل لائق.
- ومن دون دعم لوجستيّ لمجهود الأستاذ البحثي من حيث المختبرات، والمساعدة البشرية، والتواصل العلمي، لن يكون للأستاذ العربي الفرصة لينافس منتجي المعرفة هنا وهناك في العالم.

ب - ما أود أن ألفت إليه، زيادة على ذلك، في جديد العولمة وسرعة التواصل والاتصال، هو الخطر المتصاعد الذي يهدد جامعاتنا باستنزاف كل طاقاتها المنتجة عن طريق هجرة الأدمغة.

ج - الاهتمام بتأمين الموارد البشرية المناسبة، وتأمين مستلزمات إنتاجهم، هو اليوم ملح أكثر من أي يوم مضى.

التشديد على هذا الوجه من توثبات أساتذتنا لنشدّهم إلى البقاء وإلى الإنتاج في محيطهم الطبيعي، هام جداً.

الأمر يتعدّى الموضوع المادي (على أهميته) والمتمثّل ببدلات مالية أو تقديرات اجتماعية، ليطل ما هو معنوي (كالحريات واحترام الطاقات من خلال التقويم الموضوعي) وما هو شخصي (كمقومات الإنتاج البحثي، والتواصل العلمي).

الخاتمة

سنة ٢٠٠٤، سنتنم جامعات العالم في الربو في البرازيل، كما التأمتم سابقًا في باريس لتقوم المرحلة التي امتدت من سنة ١٩٩٨ إلى الآن. فهل سنقدم إلى العالم صورة متطورة عن واقعنا الجامعي قياسًا بالخطوات التي يقوم بها غيرنا؟ أرجو أن أكون قد وقفت بإقناعكم بأهمية الاهتمام بأسس المشاكل التي لا تزال نشكو منها وليس فقط بمعالجة بعض مظاهر هذه المشاكل. رجائي أن نسعى جميعًا لدرء أخطار تخلف من نوع جديد، يريده الكثيرون لنا، وبإمكانه أن يعيق نمو مجتمعاتنا وإلى غير رجعة.

مستقبل أوطاننا وأمتنا منوط بجامعة حرّة، متطورة، مُنتجة للمعرفة. طاقاتنا البشرية جاهزة للنهوض بجامعة هذه صفاتها، حتى ولو كانت اليوم هذه الطاقات مبعثرة في كل أرجاء المعمورة. هل نطوع طاقاتنا المالية والسياسية للقيام بمستلزمات جامعة على قدر طموحاتنا؟ الجواب عندنا نحن الجامعيين إن تحوّلنا إلى حلقات ضغط مجتمعية من واجبها خدمة أوطانها أولاً وآخرًا.

وشكرًا.